



الفصل الثالث



ديفيد هيوم

■ تمهيد

■ حياته وأعماله

■ تحليل المعرفة

■ الاعتقاد الديني



تمهيد

الحق أن مذهب "هيوم" وحدة متسقة تنم عن نظرة واعية متعمقة للطبيعة البشرية، ويصقل هذه النظرة بمنهج متنسق، حاول فيه الفيلسوف أن يبنى علماً جديداً واضح المعالم سليم البنيان، هو علم الطبيعة البشرية، ولتحقيق هذا الهدف، كان لابد أن ينقد أصول الطبيعة البشرية نقداً تحليلياً يبين فيه انطباعات تجاربنا.

استهل "هيوم" فلسفته بالدعوة إلى المنهج العلمي، وهو المنهج الذي يلزم باتخاذ الملاحظة والتجربة أساساً له. ولكننا نراه يقر - بوضوح - بأن الخيال قوة مبدعة يدعوها "هيوم" بـ "تلقائية الذهن". وإلى هذه التلقائية الفضل في ربط أمور الواقع بروابط وثيقة تحقق للمعرفة أصولاً راسخة يستند إليها علمنا بالواقع، وتمكن للعاطفة من أن تؤدي دورها الإنساني في الربط بين المشاعر، التي لا مفر لنا من إقرار حقيقتها، وبين الأهداف الاجتماعية التي تتطلب إثارة الغير على النفس. ومن ذلك نرى التعاطف في مجال العمل يؤدي نفس الدور الذي يؤديه الاعتقاد في مجال النظر⁽¹⁾.

هذه هي الفكرة الأصلية التي نفذ منها "هيوم" إلى مجال الأخلاق والتي تربط برباط وثيق بين جانبي النظر والعمل في فلسفته وتجعلهما ينبثقان من معين واحد لا ينضب وهو معين العواطف والمشاعر والأحاسيس .

ولكن لم يقتصر "هيوم" على الاهتمام بالإحساسات والانطباعات والأفكار على النحو الذي عرضها في كتابه "رسالة في الطبيعة البشرية" وإنما دعا إلى أتباع منهجاً يرد كل فكرة إلى الانطباع الذي استمدت منه. وقد استعاض عن العقل الخالص الذي يتشبه به العقليون بملكة ابتكارية، وابتكارها - كما يرى - ليس خلقاً وإنما تشكيلاً لمادة مستمدة أصلاً من الإحساس. هذه الملكة هي التي تمكن

للاعتقاد من ترسيخ العلاقات وتثبيتها من ناحية، وتمكن للعاطفة من إرساء العلاقات البشرية على أركان وثيقة ودعامات متينة .

لقد شق "هيوم" طريقاً جديداً فى مجال الفلسفة أيقظ عملاق الفلسفة الحديثة "كانط" من سباته فهو القائل عن "هيوم" :-

« إننى لأعترف صادقاً أن ما استذكرته من تعليم « ديفيد هيوم » كان هو على وجه التحديد العامل الذى أحدث - منذ أعوام كثيرة - أول هزة أيقظتني من سبات جمودى الاعتقادى، ووجه أبحاثى فى مجال الفلسفة التأملية وجهة جديدة . »

* * * *

حياته وأعماله

ينتمى "هيوم" إلى أسرة بورجوازية اسكتلندية، ولد فى "أدنبرة" فى 26 أبريل عام 1711، وكان هو ثالث إخوته، مات أبوه وهو لم يزل بعد رضيعاً، فألقى على الأم عبء تربية أبنائها، مستمدة أسباب الرزق من ضيعة صغيرة كانت لزوجها فى الريف. ولسنا ندرى كيف تلقى "هيوم" تعليمه، ولا أين، فكل ما يرويه فى هذا الصد فى كتابه "حياتى" هو هذه العبارة الموجزة :

« لقد اجتزت بالتوفيق شوط التعليم المعتاد »⁽²⁾.

وهذه العبارة لا تدلنا على شىء، ولكن كل ما نعلمه أن "هيوم" منذ شبابه كان باحثاً عن المعرفة، فهو يذكر فى خطاب له عام 1751، أنه كتب وهو فى سن العشرين مقالة كبيرة تضم تأملات وخواطر فى مسائل فلسفية ودينية واجتماعية. وفى نسخة خطية من خطاب كان يريد إرساله إلى طبيب مشهور وهو "جورج شين" George Cheyne ما يدل على أن "هيوم" كان مدركاً التدهور الذى آلت إليه العلوم الاجتماعية نتيجة استنادها إلى فروض خاوية وصيغ فارغة. وهو يشير - فى خطابه هذا - إلى ضرورة السعى لبناء هذه العلوم من جديد على أساس دراسة علمية للطبيعة البشرية⁽³⁾.

كانت أسرة "هيوم" تهيئه ليسلك سلك المحاماة، إلا أنه كان غير راغب فيها، فأرسل إلى "بريستول" ليدرس أصول التجارة فلم يمكث بها مدة طويلة، ثم سافر إلى فرنسا عام 1734، وبعد أن أقام فترة قصيرة فى باريس عكف على كتابة إنتاجه الأول "رسالة فى الطبيعة البشرية" وبعودته إلى لندن عام 1737 نشر الكتاب، ولكن لم يصادف من الرواج والنجاح ما كان متوقعه، ظهر الجزءان الأول والثانى عام 1739، ومع أن ظهورهما قد أثار انتباه النقاد الإنجليز، بل واهتمام النقاد الأوروبيين أيضاً، إلا أن "هيوم" لم يكن راضياً عن مصير كتابه يقول فى ذلك:

« لقد عاودنى الندم مئات المرات على تسرعى بالنشر. »

وحين أتم "هيوم" الجزء الثالث من هذا الكتاب وهو الخاص بـ "الأخلاق" ساعده معاصره الفيلسوف الأخلاقى "فرنسيس هنتشون" فى العثور على ناشر تم شرع يكتب مقالات فى الأخلاق والسياسة، وقد جمعت هذه المقالات فى كتاب عام 1742 ولاقت رواجاً بين الجمهور حتى أنه قد أعيد طبعها فى السنة التالية⁽⁴⁾.

كان "هيوم" فى الرسالة طموحاً مسرفاً فى طموحه، إذ أراد أن يطبق مبدأه الجديد على شتى نواحي الطبيعة البشرية من عقل وعاطفة وسلوك؛ لكنه أراد أن يخرج كل موضوع من هذه الموضوعات الثلاثة (وهى التى تكون على التوالي أجزاء الرسالة الثلاثة) فى بحث خاص مستقل. وبدأ تنفيذ مشروعه الجديد بـ "البحث فى العقل البشرى" الذى كانت مادته – فى أساسها – هى نفسها مادة الجزء الأول من "الرسالة فى الطبيعة البشرية" ومع ذلك فقد ورد فى "البحث فى العقل البشرى" موضوعان لم يكونا فى "الرسالة" وهما موضوع "المعجزات" وموضوع "النتائج العملية للدين الطبيعى". وقد أثارت آراؤه فى "المعجزات" ضجة شديدة، وأخذت شهرته فى الازدياد وتحرك له النقاد.

وقد ألحق بكتابه "مقال فى مبادئ الأخلاق" موضوعاً أطلق عليه اسم "محاورة" جعل الفكرة الرئيسية فيها تشابه "الطبيعة البشرية"، رغم ما بين الناس من اختلاف فى الرأى والأخلاق والسلوك. ثم نشر بعد ذلك عام 1752 "مناقشات سياسية" فكان لها أكبر الأثر فى ذيوع اسمه واتساع شهرته، وعن هذا الكتاب يحدثنا "هيوم" فيقول:

« من بين المؤلفات جميعاً يأتى كتاب مناقشات سياسية هو الكتاب الوحيد الذى صادف النجاح فور صدوره. »

إذ استقبله القراء خيراً استقبال فى إنجلترا وخارجها على السواء، ولعل العامل الأول فى نجاح هذا الكتاب هو خلوه من الآراء الميتافيزيقية المجردة⁽⁵⁾. وفى ذلك العام نفسه من حياته، أخذت مسألة "الدين" تشغله، فأثبت آراءه

فى "محاورات فى الدين الطبيعى" لكنه تردد فى نشرها، وزاد إجماعاً عن النشر حين نصحه أصدقائه بألا ينشر تلك الآراء فى الناس؛ ومما يدل على حرصه الشديد على أن تأتى هذه "المحاورات" ناضجة محكمة الرأى، لبث عدة أعوام يراجعها حيناً بعد حين، ومع ذلك كله فقد حبسها عن النشر، فلم تصدر إلا بعد موته عام 1776 .

* * * *

تحليل المعرفة

ذهب "هيوم" إلى أن العناصر التي تتألف منها معرفتنا كلها هي "الإدراكات" التي تتلقاها عقولنا ونفعل بها. فقسم "الإدراكات" إلى قسمين :-
 "الإنطباعات" Impressions و"الأفكار" Ideas. وكلاهما في نظره من نوع واحد، وكل الفرق بينهما هو في درجة القوة التي تؤثر بها كل منهما في العقل. فالانطباعات أقوى في العقل أثراً وأوضح ظهوراً، أما الأفكار فهي الصور الباهتة لهذه الانطباعات. ولا يمكن أن تنشأ في العقول أفكار إلا إذا سبقتها انطباعات. إذن، فالانطباعات هي المرجع الوحيد الذي نقيس به صحة الأفكار وحقيقتها. ويقول هيوم:

« كل الإدراكات الحسية للعقل الإنساني تنحل بذاتها إلى نوعين يتميز إحداهما عن الآخر وسوف أطلق عليهما اسم « الانطباعات » و« الأفكار » ... ويندرج تحت الانطباعات كل احساساتنا وعواطفنا وانفعالاتنا كما تظهر لأول وهلة في النفس. أما الأفكار فأعنى بها ما يكونه التفكير والعقل من صور لتلك الاحساسات والعواطف والانفعالات » (6).

ويميز "هيوم" بين نوعين من "الإدراكات": الإدراكات البسيطة والإدراكات المركبة. فالبسيطة هي التي لا تقبل القسمة أو الانفصال. أما المركبة فهي التي تنقسم إلى أجزاء، فمثلاً: إدراكنا "التفاحة" يشمل مجموعة من الصفات الخاصة بلونها ولمسها ورائحتها وهذه الصفات لا تختلط ونستطيع دائماً أن نميز الواحدة من الأخرى. لذلك فكل إدراكاتنا لها وجهان: بوصفها انطباعات حسية وبوصفها أفكاراً. على سبيل المثال :

عندما أغمض عيني وأفكر في حجرة، فإن أفكارى عنها تكون تمثالات للإدراكات الحسية التي كنت أحس بها. وإذا استعرضت إدراكاتى الأخرى فإننى

أجد دائماً نفس التشابه ونفس التمثل. إذن فهناك توافق بين الأفكار والانطباعات الحسية⁽⁷⁾.

والحق أن الأمر يختلف بالنسبة للإدراكات المركبة، فالأفكار المركبة لا تطابقها انطباعات حسية. وفي هذا الصدد يقول "هيوم":

« من الممكن أن أتصور مدينة قدس جديدة New Jerusalem جدرانها من ذهب وأحجارها من ياقوت. علماً بأننى لم أر شيئاً مثل ذلك. ولكن إذا كنت رأيت «باريس» فهل من الممكن أن تكون عندى فكرة عن هذه المدينة تمثلها بكل شوارعها وبيوتها بنفس شكلها وحجمها »⁽⁸⁾.

ومن الإدراكات المركبة ما يؤكد ارتباط الأفكار بالانطباعات الحسية ومنها ما ينفيه. والأمر يبدو أكثر وضوحاً بالنسبة للإدراكات البسيطة. حيث يرى "هيوم" أن كل فكرة بسيطة يجب أن يسبقها انطباع حسي، بينما العكس ليس صحيحاً. وبالتالي فإننا نستطيع أن نقول إن الانطباعات الحسية هي علة الأفكار، بينما الأفكار لا يمكن أن تكون سبباً للانطباعات الحسية. ولكن هناك تجربة أخرى يشير إليها "هيوم" بقوله:

« فلنفرض أن هناك شخصاً قد عرف مجموعة الألوان بدرجاتها المختلفة، باستثناء درجة خاصة من «اللون الأزرق» لم تتح له فرصة رؤيتها. فماذا يحدث عندما يصادفها. هل يستطيع بخياله وحده أن يكون لنفسه فكرة خاصة عن هذه الدرجة من اللون الأزرق؟ يعتقد البعض أنه لا يستطيع ذلك. ومن ثم فإن الأفكار البسيطة لا تشتق دائماً من الانطباعات الحسية المطابقة. وبجانب هذا الاستثناء الذي يمكن أن يحدث لقاعدة سبق الانطباع الحسي على الفكرة، فإننا يجب أن نضع حدوداً أخرى لهذه القاعدة وهي أن الإنسان يمكن أن يكون أفكاراً ثانوية من الأفكار الأولى. ومعنى هذا أن أفكارنا البسيطة تنتج عن الانطباعات الحسية على نحو مباشر أو غير مباشر »⁽⁹⁾.

هذا هو - في نظر "هيوم" - المبدأ الأول والأساسي الذي تقوم عليه الطبيعة

البشرية، وهذا المبدأ ينفي ما كان يتردد بين المفكرين من وجود أفكار فطرية فى العقل، ويؤكد أن كل الأفكار تأتي إلينا عن طريق الإحساس والتفكير.

لكن من الأفكار الهامة التى تميزت بها فلسفة "هيوم" هى القول "بتداعى المعانى أو ترابطها" إذ إن الخيال بإمكانه أن يفصل الأفكار البسيطة بعضها عن بعض ثم يعيد ربطها من جديد. هذا الترابط ينشأ عن علاقات التشابه والتجاور الزمانى والمكانى والسببية. فيرى أن التفكير الواعى المنظم هو الذى يرتب أفكارنا ترتيباً يجعل الفكرة اللاحقة ذات ارتباط بالفكرة السابقة.

ومن البديهي أن الخيال حين ينتقل من فكرة إلى أخرى تشابهها فإنه ينتقل أيضاً فى أجزاء المكان والزمان لكى يتصور الأشياء طبقاً لقانون التجاور. وعندما تنشأ العلاقات بين الأشياء، فإن ذلك يحدث حينما يكون موضوع ما سبباً فى أفعال وحركات موضوع آخر أو يكون علة لوجوده.

يقول "هيوم"

« إن للتداعى (أو الترابط) بين الأفكار أسساً ثلاثة: التشابه والتجاور الزمانى أو المكانى ورابطة العلة بالمعلول أو السببية »⁽¹⁰⁾.

والتشابه هو أساس كل العلوم التى تركز على البداهة أو على البرهان. أما العلاقة الزمانية والمكانية، فتقوم على أساسها علوم الطبيعة. وعلى السببية يعتمد كل ما له علاقة بالحوادث التى تقع فى تجارب الحياة وهذه السببية هى أوسع الروابط الثلاث انتشاراً وأشدها اتصالاً بالحياة العادية. تلك هى المبادئ الثلاثة التى تتربط الأفكار على أساسها.

الاعتقاد الدينى عند هيوم (*)

أراد "هيوم" أن تمتد النظرة الطبيعية الآلية إلى الإنسان، بحيث يفسر سلوكه تفسيراً علمياً سببياً. ومن هذه الزاوية احتل الاعتقاد الدينى مكانة رئيسية فى فلسفته، على اعتبار أن الدين من الأركان الهامة فى حياة الإنسان؛ ويجب تفسيره بما يتناسب مع النظرة العلمية، بحيث نعرف أصل العقيدة الدينية وطبيعتها ونشأتها والأسباب التى أدت إلى ظهورها. ولهذا نراه يتناول مسألة "الدين" فى كتابين رئيسيين هما:

* التاريخ الطبيعى للدين The Natural History of Religion

* محاورات فى الدين الطبيعى The Dialogues Concerning Natural
Religion

وقد حاول "هيوم" تفسير الدين، من منظور المذهب الطبيعى (***)، وأن يتلمس فى الطبيعة أساساً لتبرير ظاهرة الاعتقاد الدينى (خاصة الاعتقاد بوجود إله). والمقصود بالطبيعة هنا "الطبيعة الإنسانية"، وهى لا تعنى عند "هيوم" الغرائز، فليس الاعتقاد الدينى - بهذا المعنى - غريزة من الغرائز الأولية، بدليل أن الغرائز متشابهة دائماً عند الناس جميعاً، فى حين أن الاعتقاد الدينى يتغير مضمونه من فريق إلى

(*) إن البحث فى طبيعة الاعتقاد الدينى عند "هيوم" ليس أمراً يسيراً، ويرجع ذلك إلى صعوبة العثور على مذهب موحد فى كتاباته عن الدين، كما يرجع - من ناحية أخرى - إلى أن "هيوم" كان يميل إلى أسلوب المحاورة فى التعبير عن الآراء الدينية؛ والتى تدور بين أشخاص عدة. وقد أدى ذلك إلى ظهور خلافات كثيرة بين الباحثين والمهتمين بفلسفته حول تحديد الشخصية التى تعبر عن رأيه.

(**) لمزيد من التفصيل فى موضوع "الدين الطبيعى" انظر كتابنا "فلسفة الدين" دار قباء للطباعة والنشر، والتوزيع، 2004، ص 136 - 140.

فريق ومن عصر إلى عصر؛ بل هو فرع من الغرائز. بمعنى أنه ينشأ عنها (إن لم يكن واحداً منها) فهو إذن ثانوي وليس أولياً فى حياة الإنسان وفطرته، شأنه فى ذلك شأن مجموعة من الفضائل الخلقية والسياسية (كالعدالة أو الوفاء أو الولاء) فهذه كلها فضائل متفرعة من أصل فى الطبيعة الإنسانية، وليست فى ذاتها أصلاً. وإنما الأصل يكمن فى سلوك الإنسان – أى العواطف والانفعالات الأولية⁽¹¹⁾.

ويطبق "هيوم" النتائج التى انتهى إليها فى تحليله للعواطف^(*) على الاعتقاد الدينى. فالعواطف الأولية يكون كل منه طرفان: سبب وهدف، فالشئ الذى تبدأ منه العاطفة سيرها يكون سببها والنهاية التى تنتهى إليها تكون هدفها. كذلك الأمر بالنسبة للاعتقاد الدينى، فأصله هو السبب الذى يستثيره؛ ونهايته هى قوة غير مرئية عاقلة⁽¹²⁾.

ويرى "هيوم" أن هناك إجماع بين الناس على وجود هذه القوة غير المرئية العاقلة، لكنهم يختلفون فى طبيعتها وخصائصها باختلاف ثقافتهم ودرجة علمهم. وهنا يأتى دور العقل الذى يحدد خصائص تلك القوة، أما وجودها فلا شأن للعقل به، أى أن العقل يثبت للقوة العاقلة هذه الصفة أو تلك دون أن يمس وجودها⁽¹³⁾.

ومن هذا المنطلق يدور النقاش فى كتابه "محاورات فى الدين الطبيعى" حيث يلجأ "هيوم" إلى أسلوب المحاورة – فى هذا الكتاب – لرغبته فى عرض الآراء المختلفة حول صفات الله. ويدور الحوار بين ثلاثة أشخاص هم :

* **ديميا Demea** وهو اسم مأخوذ من التراث المسيحى، ولهذا كان يعبر عن موقف رجل اللاهوت فى تعصبه وجموده .

* **كليانتس Cleanthes** وهو – فى الأعم الأغلب – الشخصية التى عبر "هيوم" من خلالها عن آرائه الخاصة، أى تلك التى تعبر عن قدرة العقل على الوصول إلى الحقيقة .

(*) يستخدم "هيوم" كلمة "العواطف" لتشمل كل أنواع الغرائز والدوافع النفسية والميول والرغبات والانفعالات .

* فيلو Philo وهو اسم لأحد فلاسفة الأكاديمية، ويمثل موقف المتشكك الذى لا يريد أن يؤمن لا بالدين ولا بالعقل (14).

والموضوع الأساسى الذى يدور حوله النقاش بين المتحاورين الثلاثة، ليس هو "وجود الله" (لأنهم جميعاً يتفقون على وجوده) بل هو معرفة طبيعة الله وخصائصه. ويتفق "ديميا وفيلو" معاً على أن الإنسان يستحيل عليه أن يعرف عن تلك الطبيعة الإلهية شيئاً مستعيناً بالعقل وحده .

كليانتس يرى أن الإنسان فى وسعه - مستعيناً بعقله - أن يقيس طبيعة الله على طبيعة الإنسان لما بين الاثنين من تشابه (وهذا ما يُعرف بدليل الماثلة) (15).

ولكن هل يجوز أن نحكم على الله بما نحكم به على الإنسان ؟ يحاول فيلو المتشكك أن يهدم حجة كليانتس ويرى أن العالم يشبه الكائن العضوى فى تكامل أعضائه وفى نمائه، وذلك مثل الشجرة التى حالما تسقط بذورها فى الحقول تنتج أشجار أخرى (وهو ما يُعرف بالدليل الكسمولوجى أى الكونى) ويظل الحوار قائماً حول إمكان معرفة الإنسان لطبيعة الله. ويخرج ديميا من النقاش، ويظل الآخران "فيلو وكليانتس"، وينتهى الحوار بأن مبادئ فيلو المتشكك أرجح صواباً من مبادئ ديميا المؤمن، لكن مبادئ كليانتس أشد صواباً من مبادئ زميله معاً. فبالعقل - كما يقول كليانتس - يمكن أن نهتدى إلى خصائص الله وصفاته (16).

من هذا كله نستنتج أن فلسفة "هيوم" الخاصة عن الدين وآرائه فى الألوهية، لا تؤدى إلى أى عقيدة دينية تهتم بالطقوس والشعائر، أو إلى إقامة مؤسسة دينية ؛ ذلك لأنه أرجح الدين إلى مشاعر الرجاء والأمل - أى إلى الحالات النفسية الذاتية وهى تتخذ صورة دينية من خلال تفكير الإنسان ومثوله أمام قوة عليا غير مرئية عاقلة (17).

مراجعة الفصل الثالث من الباب الثالث

(1) د. محمد فتحي الشنيطي، فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد، مكتبة القاهرة الحديثة، 1957، ص4.

(2) نقلاً عن: د. زكى نجيب محمود، ديفيد هيوم، سلسلة نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف بمصر، 1958، ص15.
أنظر أيضاً:

Roger Scruton, A Short History of Modern Philosophy, from Descartes to Wittgenstein, Land Second Edition, 1995, p. 97.

(3) د. محمد فتحي الشنيطي، المرجع السابق، ص9.

(4) المرجع السابق، ص10.

(5) د. زكى نجيب محمود، المرجع السابق، ص ص22 – 23.
أنظر أيضاً:

James Collins, A History of Modern European Philosophy, p.404.

(6) David Hume, A Treatise of Human Nature, edited by, L, A, Selby–Bigge M. A. Oxford at the Clarendon press, 1960, p.1.

انظر أيضاً: د. محمود زيدان، نظرية المعرفة عند مفكرى الإسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين، دار النهضة العربية، بيروت، 1989، ص40.

(7) James Collins, op. cit., pp. 410 – 11.

(8) D. Hume, op. cit., p. 3.

(9) Ibid, p. 4.

(10) D. Hume, A Treatise of Human Nature, p. 11.

راجع أيضاً: د. زكى نجيب محمود، ديفيد هيوم، ص51.

كذلك:

James Collins, A History of Modern European Philosophy, p. 414.

(11) د. زكى نجيب محمود، المرجع السابق، ص163.

(12) لمزيد من التفصيل انظر:

Hume, Selections, edited by Hendel Charles, Scribner's Sons, New York, 1955, p. 254.

(13) د. زكى نجيب محمود، المرجع السابق، ص164.

قارن كذلك :

Hume , Principal writings on religion , including Dialogues Concerning natural religion and the Natural history of Religion , edited with an introduction by J. C. A , Gaskin , oxford , oxford University Press , 1993 .

(14) انظر: Ayer, A. J., Hume, Oxford University Press, 1980, p. 93.

(15) أيضاً: ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، ص240.

(16) Hume, op. cit., p. 285.

(17) د. زكى نجيب محمود، المرجع سالف الذكر، ص166.

(18) جيمس كولينز، الله في الفلسفة الحديثة، ص179.

* * * *